

الشیطان صورة البغال المغلوب المهزم ، أو صورة الملك المفلوج ،
الذي ما زال يحفظ سمات اللاشكّة وصفاتهم .
ولم يلبث أن تبدلت هذه الصورة ، فمتدا أراد نحّاتو
الكنائس الرومانية أن يصوروا الشيطان ، ملك الشر تمثله
بصورة أخرى .

وهناك أسباب عدة بعثت على هذا التبديل ، الأول هو
رغبة الكنيسة نفسها ، إذ لا ينبغي أن ننسى أن الشيطان شيء
خطر ، فهو الخبيث ، الذي لا يهتم له غير الإغواء والفتنة ، ولا بد
إذن من منحه صفات مخيفة رابعة ، كي تنعش هذه الصورة
الرهيبية في قلوب المؤمنين ، فتحفظهم من إغوائه ، وتبعدم
من فتنته .

ولا يجهل من جهة ثانية ، أن أكثر المشاهد المنحوتة في
الكنائس قد استوحيت من الصور أو من القصص الدينية
المثلة في أفنية الكنائس . ففي هذه الأقسام يظهر الشيطان
محاطا بقناع منحط مزر . فمن هذا الأجزاء والأحطاط ، استوحى
الفنانون تصورهم للشيطان .

وسبب آخر ، هو أن الكنيسة كانت تعتمد أن يستخلص
الرائي من صورة الشيطان عبرة وعظة ؛ فكانت تجبر النحاتين أن
يجمّلوا الفرق شامسا بين الملك والشيطان ، مع المحافظة على روح
التصاوير البيزنطية .

وفي القرن الثاني عشر ، كان الشيطان يصور في أغلب الأحيان
كأبيل : شكل إنساني ، ذو جسم ونقذين وذراعين . ولكنه
تارة ضئيل الجسم كأنه القزم ، وتارة بالعكس ، عبل القدم مستطيل
القامة كأنه المملاق . وسواء أكان قزما أم عملاقا ، فقد كانوا
يجمّلونه ذا هامة ضخمة ، وعينين جاحظتين واسمتين ، وأنف
أفطس ، وفم غريب الخلق لا يشبه فم الآدميين ، قريب إلى فم
الكلب ، وأسنان ضخام مخيفات ، وشعور منفوشة ، فأعنت كأنها
السنة اللهب . وقد اصطلاح الفنانون على إلصاق هذه الشعور في
رسومهم لكل من له صلة بالشيطان ، وخاصة بالنساء .

أما هامة الشيطان فتستدعي الرنو والمجب لفضحامتها . وأما
جسمه فهو نحيف ، والبشرة ذابلة جف ماؤها ، ورجلاه وذراعه
عظام لا تكسوها لحم ، وتنتهي بأظافر مقوفة جارحة . وعلى

إبليس والفن

للأستاذ صلاح الدين المنجد

—>>><<<—

لا تظهر صورة الشيطان في المصور الأولى من تاريخ
الكنيسة ، وينبئ أن نبدأ من القرن السادس ، لئرى التخيلات
الأولى ، للشيطان .

وأقدم هذه التمثيلات توجد الآن في مخطوط قديم عن
أعمال القديس غريغوار دنيزيانز g. de Nizianze محفوظ في
المكتبة الوطنية بباريس .

فهذا المخطوط الذي يرجع عهده إلى القرن التاسع ، يتضمن
صوراً أقدم من هذا التاريخ بثلاثة قرون . فأحدى الصور ، تمثل
محاولة الشيطان فتنة أيوب ، وفيها يظهر أيوب في قصره يفكر
والشيطان بالقرب منه ، حاملا في يده حقة طيب ، تتأرجح منها
الروائح العطرية السكرية ، وكأنه يسخر من الحكيم ويهزأ به .

ولا يظهر الشيطان في هذه الصورة مخيفاً ، بل ما يزال الملك
المطرد ، التكبر ، وهو هنا ذو جناحين طويلين منتشرين ، وله
وراء رأسه إكليل من النور ، تذكر بأصله . ثم هو ماري الجسم
حول خصره زنار من السيور ، وليس في مخايله ما هو يمد عن
خلقة الإنسان ، ولكن يديه ورجليه المقوفة الأظافر ، تميزه
ميزة خاصة .

وفي هذه المخطوطة ، صور أخرى للشيطان وكلها متماثلة .
والظاهر أن الفن الاغريقي ، والفن البيزنطي ، لم يشاء أن
يشوها شكل الشيطان . والفنانون الشرقيون في بيزنطية كانوا
ذوي شنف بالجمال ، فلم يهتموا بتصوير هذا الشيطان ، قرينا
بالشر ، المخيف النظر والمخبر .

ولم يقل رجال الدين في الكنيسة قط ، إنهم رأوا مثلا
الشيطان يوما ، بشكل شاب غرائق جميل ، أو بشكل فتاة
حسنة كاعب ، ذات وجه ناضر . ولذلك كانوا يصورون الشيطان
بالقبیح ، ويلونونه باللون المظلم القاتم ، كالأسود أو لون البنفسج ،
فهذا مَلَك الليل الشرير .

وانتقلت هذه الصورة من بيزنطية إلى الغرب ، فأخذ

ونثر، نضر من نشاء، وتنفع من نشاء على هواها. أما فكر وجود ملك للشر يقابل ملك الخير التي كانت توجد لدى الفينيقيين والفرس والهند فلم تعرفها اليونان والرومان.

فليس من الغريب إذن إذا كان فن عصر النهضة يحس التأثير اليوناني الروماني قد أهمل بعض الإهمال تصاوير الشيطان التقليدية الموروثة، واستميض عنها بتصوير آخر. فقد أصبح الشيطان يرمز رمزاً كبيراً إلى القبح الشديد، وهذا سر انتقاله حيواناً، له ملامح الحيوانات كلها؛ كالثور الوحشي، والخنزير والذب وغيرها. وتمددت الشياطين، فكثرت صورها أيضاً ولم يبق كما كان من قبل، صورة واحدة لشيطان واحد.

وفي عصر النهضة، من جهة أخرى، ظهرت موضوعات أخرى لطيفة تمثل الشيطان، مثال ذلك أن صوروا الموت بمخاطب الشيطان، لأن الموت كان قد بدأ بتصويره منذ القرن الخامس عشر بإيجاء من النكيسة أيضاً كي تخيف المؤمنين مما يعقبا من جحيم ونعيم وعذاب. وفي كتاب Art Moriendi - لفيرارد Verard، وهو مزوق مصور، تظهر صور كثيرة للشياطين، كلها ذات ملامح في أغلب الأحيان حيوانية؛ فقد جعل لها أذنان وقرون وحواقر وغير ذلك.

ويلاحظ أن الشيطان قد أصبح حيواناً عند فناني وادي الرين Vallee de Rhin أشباه ستيغان ومارتان وبعدهم عند البيردورر ومن جاراهم. ثم يلاحظ كلما تقدمنا في القرن السادس عشر، قلة تصوير الشيطان لأن «مجمع ترانت» عندما منع تصوير الشخص الحنيفة ونحتها ضرب الأفاصيص الدينية وشخصها ضربة قاضية، فقل تصويره.

حتى إذا أقبل القرن التاسع عشر، ظهرت صورة جديدة للشيطان، فقد أترظهور فوست لنوته، وانتشارها الواسع في ذلك، ودفع الفنانين إلى تصوير هذا الشيطان الرجيم؛ فصوروه كما يلي: ملك مطرود من رحمة الله، ترافقه فترة شقاء من قبح، والجناحان طويلان ينتشران حول الجسم المشوه. وجهه يمثل صورة جانبية مستنونة مضطربة، وقد تدر بدثار. وهكذا صور دلاكروا في فوست سنة ١٨٢٨. وبقيت هذه الصورة شائعة بين الناس؛ وهي التي يلجأ إليها اليوم في تمثيل الشيطان.

(دمشق) صرح الربيع النجم

هذا الشكل صور الشيطان، في مواساك Moissac، أوتين فيزيلاي Aulun Vézelay.

ويذهب مال E. Mâle الذي نفتبس منه هذه المعلومات إلى أن الرهبان هم الذين كانوا يختلفون هذه الصورة.

وقد ساعدت القصص الدينية، وما في الإنجيل خاصة، على تمثيل الشيطان، فصوروه تصاوير مختلفات، تمثله مطروداً من الجنة كاسفا حزينا، أو جالساً في الجحيم على عرش في وسط النار رجلاه على منصة، تدور حدقتا عينيه الخفيفتين، أو ساعياً في إغواء المؤمنين الخلقين.

وفي القرن الثالث عشر، تظهر أكثر الصور التي كانت في القرن الذي قبله. على أن شكل الشيطان نفسه قد اختلف اختلافاً محسوساً؛ لأن تمثيلات الرهبان وأوهامهم صورته على شكل قزم قبيح في منتهى القبح، ولكنه أقل إرهاباً. أما ملاعجه فمادت كملامح الإنسان، هي قبيحة بلا شك؛ ولكنها أقل تشويهاً من الماضي. وتبدل مفهوم الشيطان، فهو لا يخيف كما كان يخيف من قبل؛ ولا شك أنه أضخم من الماضي أيضاً؛ فلا ترى - إذا رأيت صورته - عظاماً تخيف، فوقها جلد تخيف؛ ولكنه كان أملاً جسمياً. وقد يلاحظ أن بعض الصور، كانت تلصق به بعض الملامح الحيوانية، كأن يحمل له رأس قطة كبير، أو كأنه القطة الكبيرة، كما في نوردام دُباري.

على أنه يلاحظ أمر، هو أنه كلما كان الفن يعتمد عن الدين كانت أشكال الشيطان ينجح عن إثارة الرعب. ففي القرن الخامس عشر كان يخيل للرأي أن الشيطان مخلوق مضحك. وكان يحافظ، في أكثر المشاهد التي يصور بها، على الملامح الإنسانية؛ أعني أنه كان له دائماً رأس وجسم وذراعان ونخدان. وبالعكس عصر النهضة في فقد الشيطان هذه الصفة الآدمية. فنحن نلاحظ أنه بعد منتصف القرن الخامس عشر، والقرن السادس عشر، قد طرأ تبدل كبير على ملك الشر.

فلقد فهم رجال النهضة خطأ ما يرمز إليه الشيطان. ولا بد من التنويه بأن فكرة الشيطان لم تعرف في الديانات اليونانية والرومانية. ففي الديانة اليونانية كان للشياطين شأن قليل. فهي أرواح لا أثر لها، تذهب وتجيء أحياناً بين الآلهة والأبطال. ووجودها في الديانة الرومانية أكثر غموضاً أيضاً. ولا بد من أن نذكر أن الآلهة في أتيننا ورومة كانت في آن مما، أرواح خبير